

واحة "تيسينت"¹ من خلال رحلة "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو

البشير أبرزاق

أكاديمية العيون الساقية الحمراء

"Tesent Oasis" is one of the oases of the Bani's country. It is situated between Tata and Faum Zguid. The famous French explorer, "Charles DE Foucauld", settled there nearly four months, during his expedition to Morocco in 1883-1884. That enabled him to identify the aspects of social, cultural life of the oasis, as well as the composition of ethnic, political difficulty and economic structures. Part of his book titled "Reconnaissance Au Maroc" is about exploring Morocco.

This contribution is a desire to represent "Teso oasis" in the French mind, via exploring the image produced by "Charles DE Foucauld" about the region from the journey text.

مقدمة

في ظل التحولات السياسية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفها النظام الرأسمالي الأوربي خلال القرن التاسع عشر، برزت الظاهرة الاستعمارية سبيلا لتجاوز التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والمالية المرتبطة بهذا النظام. وفي تلك الظروف نشطت الرحلات الأوربية الاستكشافية فيما وراء البحار، في إطار التمهد لتدشين المشاريع الاستعمارية الأوربية بالعالم؛ عبر التقرب والانفتاح على المجتمعات غير الأوربية، ودراسة مظاهر حياتها الاجتماعية والثقافية وتركيبها الإثنية ووضعيتها السياسية وبنيتها الاقتصادية، مما مكنها من

¹ - إحدى واحات باني، جنوب شرق المغرب، تبعد بحوالي 70 كيلومتر جنوب واحة طاطا. ولفظة "تيسينت" بكسر التاء، مشتقة من الكلمة الأمازيغية "تيسنت"، التي تعني الملح. وحول تيسينت، أنظر: مبارك أوسديد: "تيسنت"، معلمة المغرب، ج 8، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1995، ص 2701-2702.

تقدم صورة دقيقة عن العوالم المستهدفة. وضمن هذا السياق جاءت رحلة الفرنسي شارل دوفوكو إلى المغرب (1883-1884)².

وجاء تركيزنا على رحلة "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو³، في تشخيص صورة المجتمع المغربي الواحي، من خلال نموذج واحة تيسينت، نظرا لانفراده بزيارة المنطقة واستقراره بها قرابة أربعة أشهر. ومن ثمة يمكن اعتبار رحلته مصدرا أساسيا في التأريخ لتيسينت خلال القرن التاسع عشر. ولعل في دلالة عنوان الرحلة ما يجيل منذ البداية على أن صاحبها يقدم جديدا ويصحح غموضا ويعرف بالمغرب المجهول لدى الساسة الفرنسيين آنذاك.

وإذا كانت مختلف الكتابات الاستعلاماتية والاستكشافية الأوربية حول مغرب القرن التاسع عشر يطغى عليها طابع التعميم وإصدار الأحكام المسبقة، فإن دوفوكو أعطى لرحلته طابعا خاصا على مستوى دقة معلوماته وعلميتها إلى حد كبير.

إن مسعى هذه الدراسة هو الوقوف عند تمثل واحة تيسينت في المخيال الفرنسي، عبر البحث في الصورة التي أنتجها شارل دوفوكو عن المنطقة، مساهمةً في إمطة اللثام عن تاريخ واحات جنوب جبل بائي، التي لم تنل نصيبها من البحث التاريخي الذي تستحقه⁴ رغم حضورها التاريخي الكبير والعميق في صناعة أحداث تاريخ المغرب.

ولسنا في حاجة إلى كبير عناء لكي نبين ما حظيت به واحة تيسينت من أهمية في رحلة دوفوكو، فقد شمل حديثه عنها حيزا لا يمكن لدارس الرحلة أن يتجاوزَه. وقد مرت هذه الرحلة في مرحلتين أساسيتين: امتدت المرحلة الأولى ما بين 14 و16 نونبر 1883. أما المرحلة الثانية، فقد استقر خلالها دوفوكو بالمنطقة حوالي أربعة أشهر في ضيافة الحاج بورحيم ولد بورزاق بقصر أكادير الكبير ما بين 18 دجنبر 1883 و6 أبريل 1884، حيث غادر دوفوكو تيسينت بشكل نهائي.

² - من بين الرحلات الأوربية نحو المغرب خلال القرن التاسع عشر، نذكر: رحلة الاسباني دومينغو باديا (1803-1807)، ورحلة الفرنسيين دولاكروا سنة 1831، وفرناند شيكلير سنة 1859، ورحلة الألماني رولفس جيرالد 1861... وحوال بيوغرافية دوفوكو، أنظر: Bazin René, 1931، و Jean François, 1962، و سميير بوزويته، 2007.

³ - انتهى دوفوكو من تحرير كتابه سنة 1887، ونشر لأول مرة عام 1888 وأعيد نشره سنوات 1935 و1986، و1998. وقام الأستاذ المختار بلعربي بترجمته إلى اللغة العربية بعنوان "التعرف على المغرب 1883-1884" سنة 1999 ضمن منشورات دار الثقافة بالدار البيضاء وإشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.

⁴ - تعتبر دراسة كل من جمال بلخضر وآخرين (1992) أهم مونوغرافية أُبجرت حول واحة تيسينت إلى حد الآن.

وخلال مدة إقامته قدم الرحالة مشاهداته ويوميياته عن الواقع التيسينتي، مجتمعيًا وعمرانياً، وسياسياً، وجغرافياً... فكيف كانت الصورة التي قدمها عن الواحة؟ وإلى أي مدى تمكن من تشخيص الواقع التاريخي والممارسات الاجتماعية والثقافية للمجتمع التيسينتي خلال أواخر القرن التاسع عشر؟

1. الوسط الطبيعي

إن أهم ما يستوقف الناظر لرحلة "التعرف على المغرب" هو غنى المعطيات التي تهم الواحة تيسينت، وكذا حرص صاحبها على تدقيق ودقة كل ما يتعلق بالجغرافية الطبيعية للواحة. ولا ضير في ذلك، إذا استحضرننا البعد الاستراتيجي الذي كان وراء العمل الاستكشافي لدوفوكو بالمغرب، وهو تمهيد الطريق أمام الجيوش الفرنسية للتدخل المباشر في التراب المغربي.

لقد سحرت الواحة دوفوكو بهوائها الدافئ وصمتها العميق وطبيعتها الخلابة⁵، فأصبح أمام منطقة جديدة يختلف كل ما فيها عما رآه في باقي مناطق المغرب التي زارها⁶. إذ جمعت بين غنى وتنوع مواردها الطبيعية، وظروفها المناخية الصحراوية الجافة. فهي تمتد عند قدم جبل باني⁷، وتلال قليلة الارتفاع وهضاب رملية⁸، ووسط غابات نخلية دائمة الاخضرار وقصور مليئة رفاهية وثروة⁹.

وفي حديثه عن الثروة المائية التي تحتزنها تيسينت، نجد دوفوكو ومنذ أن وطأت قدماه قصر تنزطة مساء يوم 13 نونبر 1883 قادما من منطقة تازناخت¹⁰، لا يفتأ عن ذكر كل الأودية والأنهار والسواقي التي مر بها، يقول مثلا: " نسير بين مئات قنوات السقي، بين أشجار نخيل كبيرة ذات مظاهر عجيبية"¹¹. وأسهب دوفوكو في وصف واد تيسينت الكبير¹²،

⁵ - شارل دوفوكو، التعرف على المغرب (1883-1884)، ترجمة المختار بلعربي، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء،

1999، ص 156.

⁶ - نفسه، ص 182.

⁷ - نفسه، ص 154.

⁸ - نفسه، ص 158-161.

⁹ - نفسه، ص 182.

¹⁰ - نفسه، ص 156.

¹¹ - نفسه، ص 156.

وحجم مياهه وأسمائه، إذ فيه "كثير من الماء خلال جميع فصول السنة، هذا الماء مالح، يفضل الناس شرب مياه الأمطار والتي تحفظ في حفر بعض صخور الجوار"¹³، وأسمائه كثيرة يصطادها السكان، ويصل طول بعضها إلى 40 سنتمترا.

ورغم أن ساكنة المنطقة لا تملك صهاريج خاصة لحفظ مياه الأمطار¹⁴ تؤكد المعلومات على وجود نظام يمكن من الاستفادة من الثروة المائية التي يوفرها واد تيسينت. وهذا ما يستخلص من قول دوفوكو: "عند مدخل النخيل، قبالة أكادير، يحجز المياه سد: يتكون عند هذه النقطة خزان طويل الشكل وعميق. تنطلق من هذا الخزان مجموعة سواقي لا تخصي لري كل بقعة أرض"¹⁵.

ولم يقف الرحالة عند هذا الحد، بل قدم تفاصيل دقيقة حول كل ما يتعلق بأودية تيسينت على مستوى وضعها الطبوغرافي من عمق وعرض وحدود جغرافية. ليضعنا أمام عمل جغرافي هام. فهذا واد تنزيطة الذي يصل عرضه إلى حوالي 100 متر، يحده جنوبا جبل باني وشمالا سهل الفايجة، ويوجد على بعد يتراوح ما بين 20 و25 مترا. ويفصل القصر عن سهل الفايجة حافة تكاد تكون عمودية. أما قعره فعبارة عن رمال بيضاء، مغروس بالنخيل¹⁶. وتتبع دوفوكو التغيير الذي لحق مجرى هذا الواد في الاتجاه الجنوبي نحو مركز الواحة، إذ سجل أن قعره يضيق شيئا فشيئا حتى منطقة أقا نايت سيدي، ويزداد ضيقا إلى أن يصل إلى 40 مترا عند فم تيسينت¹⁷. أما واد "قصة الجوع" فهو عبارة عن سرير نصفه صخور ونصفه الآخر رمل، وعرضه 20 مترا، ذي ماء صافٍ وجارٍ وصالح للشرب¹⁸.

أما واد تيسينت فهو "بئر وسط النخيل وينمو النخيل على ضفافه، وتنشر ظلالها على مياهه. يوجد سرير النهر الصخري في كل مكان تقريبا... عرض النهر ما بين 100 و120 مترا. تغطي ربع هذا العرض المياه التي تتوزع إلى عدة أدرع. عند عالية الواحة حجم المياه أكثر

12 - ونعني به الواد الذي تلتقي منابعه على ضفاف قصر أقا نايت سيدي في اتجاهي قصر تنزيطة، والمنطقة المعروفة

محليا بـ"أما ريغ". وهو الذي يكون "شلال العتيق" قبالة قصر أكادير.

13 - دوفوكو، م س، ص 162.

14 - نفسه، ص 162.

15 - نفسه، ص 162.

16 - نفسه، ص 157.

17 - نفسه، ص 157.

18 - نفسه، ص 158.

واحة "تيسينت" من خلال رحلة "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو

أهمية"¹⁹. وبفضل وفرة الموارد المائية بها، صارت تيسينت أغنى الواحات المغربية التي رآها دوفوكو، على مستوى كميات المياه الجارية²⁰.

وهذه المعطيات رغم بساطتها وجزئيتها، إلا أن أهميتها كبيرة بالنسبة للدوائر الفرنسية، التي كانت ترغب في معرفة كل حيثيات المجال المغربي؛ وخاصة الأجزاء النائية منه، قصد توظيفها في إتمام تحقيق مشروعها الاستعماري في شمال إفريقيا.

2. الحياة الاقتصادية

تميز الاقتصاد التيسينتي، شأنه شأن مناطق مغرب القرن التاسع عشر، بالبساطة وسيطرة النشاطين الفلاحي والتجاري. وكانت أهم العمليات التبادلية للواحة تتم مع باقي المناطق المغربية وخاصة تارودانت وأكادير إلى حدود الصويرة، وفي اتجاه آخر نحو أفريقيا جنوب الصحراء التي تشكل العمق التاريخي لتيسينت.

أ. النشاط الفلاحي

يرتكز النشاط الفلاحي لواحة تيسينت أساسا على النخيل، وذلك بحكم الظروف المناخية الجافة للمنطقة. فنادرا ما يرى المرء - حسب دوفوكو - أشجارا أخرى كالتين مثلا، أو مزروعات أخرى تحت ظلال النخيل، باستثناء حقول الحبوب في بعض المناطق البورية أو خارج مجالات النخيل²¹. وكانت الحبوب تزرع خلال شهر دجنبر وتجمع الغلات في شهر مارس²². أما الخضر فلا تزرع إلا خلال سنوات الأمطار حيث يكون واد تيسينت "أوفر ماء" مما هو عليه خلال السنوات الأخرى، حيث يوفر أكثر مما تحتاج إليه النخيل من الماء، فيمكن إذاك النهر إرواء مساحة أكبر من الأرض²³. وهذا دليل على أهمية هذا الواد في تخصيص الحياة الفلاحية بالواحة.

¹⁹ - نفسه، ص 162.

²⁰ - نفسه، ص 162.

²¹ - نفسه، ص 163.

²² - نفسه، ص 161.

²³ - نفسه، ص 163.

يتبين مما سبق أن الإنتاج النخلي يشكل قوة الثروة الفلاحية بتيسينته، وهو ما جعل منها أحد أهم مراكز التمور في الجنوب المغربي. فحسب دوفوكو من بين الواحات الثلاث المشهورة في المنطقة، طاطا، وأفا، وتيسينته، تتميز طاطا بكثرة سكانها، في حين تحتل تيسينته المرتبة الأولى على مستوى عدد النخيل. ويتجلى ذلك في تنوع أصناف التمور الموجودة بها، حيث نجد: الجيهل وبوطوب وبوسكري وبوسواير، وجودتها الكبيرة، ف"التمور جيدة جدا في تيسينته، بينما هي عادية في مناطق أخرى"²⁴.

أما على مستوى تقنيات الري، فلا يمكن فصلها عن واقع الفلاحة التقليدية" باعتبارها جزءا من كل متكافئ، من حيث التقدم والتطور أو التأخر والركود، مع باقي الأجزاء الأخرى المكونة لبنية المجتمع المغربي التقليدي"²⁵. إذ كانت تعتمد على تحويل مياه واد تيسينته عبر القنوات والسواقي المتعددة، ويتضح ذلك من خلال قول دوفوكو: "نسير بين مئات قنوات السقي بين أشجار نخيل كبيرة ذات مظاهر عجيبة"²⁶. إضافة إلى اعتماد تقنية السدود لتخزين المياه، ف"عند مدخل النخيل، قبالة أكادير، يحجز المياه سد: يتكون عند هذه النقطة خزان طويل الشكل وعميق. تنطلق من هذا الخزان مجموعة سواقي لا تخصي لري كل بقعة أرض"²⁷.

إن نظام السقي بواحة تيسينته، كغيرها من المناطق الواحية، كانت له أبعاد اقتصادية واجتماعية. ذلك أن وجود عدد لا يحصى من السواقي، يجسد عمق التضامن بين قصور تيسينته وساكنة القصر الواحد في ما بينها، كما يعبر في نفس الآن عن الوعي بضرورة العيش المشترك القائم على التوزيع العادل للمياه التي يوفرها الواد باعتباره ملكا جماعيا لكل قصور الواحة ودواويرها.

أما بالنسبة لتربية الماشية، ورغم قلتها فقد سجل دوفوكو تنوعا نسبيا من حيث أصناف المواشي الموجودة بتيسينته. فتربية الأبقار مقتصرة على العائلات الخمسة عشر الغنية بالواحة، وعدد الرؤوس بما لا يتجاوز 25 رأسا. إضافة إلى نحو 25 رأسا من الحمير، وعدد قليل من الأغنام والماعز، أما الخيول فهي نادرة جدا في المنطقة بسبب صعوبة تغذيتها، إذ لم

²⁴ - نفسه، ص 163.

²⁵ - الهادي الهروي، القبيلة، الاقطاع والمخزن، مقارنة سوسيلوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا

الشرق، الطبعة الأولى، 2005، ص 82.

²⁶ - دوفوكو، م، س، ص 156.

²⁷ - نفسه، ص 162.

واحة "تيسينت" من خلال رحلة "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو

يتجاوز عدد الفرسان 3 أو 4 في مجموع الواحة. وكانت هذه المواشي تتغذى أساسا على التبن والعشب والرديء من التمر المسمى "بوسواير"²⁸.

وأمام الصعوبات الطبيعية يلجأ بعض سكان الواحة أحيانا إلى اتخاذ تدابير وقائية لتربية مواشيهم مثل التعاقد مع الرعاة من الرحل، فيوكلون إليهم أمر خيولهم وأغنامهم، ويتكلف الرحل بتغذيتها مقابل استعمالها والاستفادة منها، وتنتهي هذه العقدة عند طلب أصحاب المواشي²⁹.

ب. النشاط التجاري

شكل مجال تيسينت محورا تجاريا أساسيا بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء خلال فترات مهمة من التاريخ. وخلال القرن التاسع عشر كانت تيسينت حاضرة ضمن شبكة الطرق التجارية الكبرى بالمغرب. فبالإضافة إلى الطريق المنطلق من فاس نحو مكناس وتازة والعرائش والرباط ووزان وتطوان وطنجة وفكيك، والطريق المنطلق من مراكش نحو بني ملال وأبي الجعد وأزمور والصويرة وتيكيرت وتازناخت، نجد طريقا يربط بين تيسينت والصويرة عبر تارودانت وأكادير³⁰.

وبدراسة المعطيات الاقتصادية التي قدمها دوفوكو في نصه الرحلي، تتأكد المكانة الهامة التي يمثلها النشاط التجاري بالواحة. فقد تحدث عنها باعتبارها مركزا تجاريا مهما، وخاصة قصر أكادير الكبير حيث تتمركز تجارة الواحة وحيث يقام السوق الوحيد بها كل يوم³¹. ويرجع دوفوكو الحركة التجارية التي عاشتها تيسينت، وخاصة بمركزها أكادير، إلى الوضع الاجتماعي لسكان القصر، والثروات المالية التي راكموها من تمور النخيل³². حيث صار أهل أكادير من أرباب التجارة بتيسينت، وكانوا يتكيفون بالعمليات الأساسية المرتبطة بالتصدير

²⁸ - نفسه، ص 167.

²⁹ - نفسه، ص 167.

³⁰ - Laroui, 2001.

³¹ - دوفوكو، م س، ص 168 - 169.

³² - نفسه، ص 168.

والاستيراد، في حين أن عمليات البيع المحلية كان يتكلف بها الأجراء من اليهود. إذ كان كل تاجر بقصر أكادير يتوفر على "يهودي أجير، يعيش معه ويقوم بتوزيع المواد صباح مساء"³³.

لقد كان مركز تيسينت خزاناً تجارياً، ليس للسكان المحليين فحسب، وإنما للقبائل المجاورة من الرحل، وخاصة إدوابلال وأولاد يحيى، الذين يتوافدون على السوق اليومي لاقتناء بعض المواد الأساسية المحلية، كالتمر والحبوب والزيت، والمنتجات الأوربية كالخنت والسكر والشاي والإبر³⁴.

أما سوق مغميمة السنوي، فقد كان ملتقى تجارياً وحضارياً كبيراً، حيث "يأتي الناس إليه من حوض نهر درعة ومن سوس ومن الساحل ومن تافيلالت في كثير من الأحيان، وشوهد فيه تجار قدموا من فكيك"³⁵.

وقد عرف هذا النشاط التجاري منذ تأسيس مركز تندوف تراجعاً كبيراً. إذ لم تعد القوافل التجارية تمر عبر طريق تيسينت، بل كانت تقف عند حدود موقع تندوف، لتسلك الطريق الساحلية عبر بلاد شتوكة في اتجاه الصويرة³⁶.

وعموماً، يمكن تلخيص البنية التجارية لتيسينت، كما حددها دوفوكو، في ما يلي:

مع بلاد مراکش والصويرة وبلاد سوس:

- الصادرات: التمور والجلد والصمغ.

- الواردات: الحبوب والزيت من سوس، والمنتجات الأوربية كالخنت والسكر والشاي والإبر.

ومن بلاد السودان: تستورد تيسينت الجلود والأثواب وشموع العسل الأصفر والذهب.

³³ - نفسه، ص 169.

³⁴ - نفسه، ص 168.

³⁵ - نفسه، ص 222.

³⁶ - نفسه، ص 169.

3. البنى المجتمعية

التركيبة المجتمعية

يبدو أن دوفوكو وجد صعوبة كبيرة في تحديد عدد سكان واحة تيسينت. فباستثناء قصر أكادير الذي حصر عدد سكانه في 500 عائلة، لا نكاد نجد إشارة تذكر في ما يخص القصور الأخرى، حيث اكتفى بذكر قصور تيسينت الخمسة، وهي: أكادير، وأيت ويران، وتزنوت، والزاوية، وبوموسي. واعتبر أن أكادير وبوموسي هما القصران الرئيسيان³⁷، بل إنه أحيانا يختزل تيسينت في قصر أكادير.

وعلى مستوى بنية المجتمع التيسينتي خلال أواخر القرن التاسع عشر، يذكر دوفوكو أن التركيبة السكانية للواحة لم تخرج عما هو موجود في واحات جنوب جبل باي، حيث العناصر الأمازيغية من فئة الشلوح و"الحراطين"، مع هيمنة الفئة الأخيرة التي تشكل 9/10 من الساكنة، وهي أقوى نسبة في جميع الأماكن. هكذا يكاد يأهل تيسينت الحراطين بأجمعها³⁸. أما فئتي "المرابطين" والشرفاء" فيتركزون أساسا في قصري بوموسي والزاوية³⁹.

ورغم وجود بعض العناصر اليهودية، فإن تأثيرها الاجتماعي يظل محدودا، لارتباط تواجدهم بالعمل التجاري، حيث لا تتوفر تيسينت على ملاح خاص بهم، وإنما يعيشون فرادى باعتبارهم أجراء عند أرباب عملهم، وفئة أخرى تمارس مهنة الصياغة⁴⁰.

أما العناصر العربية من القبائل الرحل كإداو بلال وأولاد يحيى، فيبقى توافدهم على المنطقة مؤقتا وموسميا في إطار الاتفاقيات التي تنظم العلاقة بين السكان المحليين المستقرين من أهل تيسينت، والرحل الوافدين.

الصفات الخلقية

من أهم خصوصيات رحلة "التعرف على المغرب"، تلك الدقة في دراسة الواقع الإثني بتيسينت، وخاصة على مستوى الصفات الخلقية للسكان. ففي سياق مقارنته التفاضلية بين

³⁷ - نفسه، ص 163

³⁸ - نفسه، 164-165.

³⁹ - نفسه، ص 163.

⁴⁰ - نفسه، ص 169.

السكان المحلية من الشلوح و"الحراطين"، والعرب الرحل الوافدين، يعتبر دوفوكو أن "رجال المنطقة، الشلوح والحراطين متوسطوا القامة عادة، جميلوا الطلعة، أقوياء جسمانيا، رشيقون وقبيحوا الوجه"، في حين "يكاد يكون جميع العرب قصيري القامة، نحيفي المظهر ولهم ملامح جميلة".⁴¹ ويسجل دوفوكو تفضلا حتى داخل العنصر الواحد، فعدد النساء الشلحات الجميلات يكاد يكون قليلا مقارنة مع العدد الكبير من الحراطينات الجميلات⁴².

وفي وصفه للنساء "الحراطينات" مقارنة بنساء القبائل الرحل، سجل صاحب الرحلة، أن "الحراطينات" يمتزن "أيام شباهن بعيون كبيرة كثيرة الحركة والتعبير، وببشرة منفتحة وباسمة وحركات مرنة ولطيفة"⁴³، إلا أنه لم ير في أي مكان من المغرب - حسب تعبيره - نماذج نساء أجمل من النساء العربيات من إداوبلال وأولاد يحي، من حيث النبل والانسجام والبياض الناصع. هذا بالرغم من أن "ارتداء الملابس الزرقاء، إضافة إلى عدم الاغتسال أعطى أجسامهن فوارق داكنة ومائلة إلى الزرقة ومغايرة للون الطبيعي لجلدهن"⁴⁴.

مظاهر الحياة المجتمعية

تتأسس حياة المجتمعات الإنسانية في بعض جوانبها الأساسية على مختلف العلاقات التفاعلية لكل كيان بشري، وما يرتبط بذلك من نظم اجتماعية متعددة من لغة ودين ونمط حياة. والمجتمع التيسيني باعتباره مجتمعا ريفيا بسيطا، وبحكم ما راكمه من تفاعل وعلاقات، تشكلت لديه عدة خصوصيات ثقافية من عادات وتقاليد توارثتها الأجيال المتعاقبة على مر السنين، مع إضافة وتغيير كل جيل لبعض جوانبها المادية والمعنوية، إلى أن صارت في صورتها اليوم.

لقد استأثرت مظاهر الحياة المجتمعية والثقافية المحلية للمجتمع التيسيني باهتمام الرحالة دوفوكو، سواء في جوانبها المادية المحسوسة؛ كالملبس والمسكن والغذاء، أو المعنوية غير المحسوسة؛ كالقيم والسلوكات وغيرها. إلا أن دوفوكو ركز أساسا على بعض المجالات التي اتضحت فيها الخصوصيات المحلية كاللباس والبرنامج الغذائي.

41 - نفسه، ص 166.

42 - نفسه، ص 165.

43 - نفسه، ص 165.

44 - نفسه، ص 165.

أ. اللباس

يلبس الرجال قشايية من قطن أزرق "الخنت"، طولها ما بين مترين ومترين ونصف، وعرضها ما بين متر ومتر ونصف، يوجد في وسطها شق طولي يمر عبره رأس لابسها. يقع طرفا قطعة الثوب أحدهما إلى الأمام والآخر إلى الورا، وتعتد زوايا أطراف الثوب بعضها ببعض في اتجاه أسفل قامة لابسها يمينا وشمالا، ويبقى الجانب عاريا. وفي أعلى هذا اللباس، يلتحف البعض "الحائك" من الصوف الأبيض، ويلبس البعض الآخر "البرنوس" الأبيض أو الأسمر. أما الرأس فيحاط بعمامة ضيقة من الخنت أو يبقى عاريا في كثير من الأحيان. وعلى مستوى الأرجل تلبس بلاغي صفراء، وحول الذراع توضع بعض الحروز، وحول العنق فتيل من جلد حيث علقت أربعة أشياء: غليون ذو محرق من خشب السودان الأسود، ومخز لتنظيفه، وملقط لأخذ جمرة النار وإشعال الغليون، وأخيرا جراب صغير من جلد لحفظ التبغ.⁴⁵

أما بالنسبة للنساء، فإن طريقة ارتداء الملابس عند المحليات من "الحرطانيات" والشلحات لا تختلف عن الطريقة المعتمدة عند نساء الرجل العريبات. كما أن ملابس "الحرطانيات" بتيسينت لا تختلف عما هي عليه في باقي جهات المغرب، حيث تتكون من قطعة قماش وحيدة معقودة على الكتفين ومقبوضة عند الحزام، مع حجاب صغير من الخنت تغطي به النساء وجوههن أمام الرجال أو عند حضور آبائهن. ويتعلن البلغة الحمراء عند الخروج من المنزل. كما يصبغن وجوههن قليلا، ولا يوشمن بتاتا، ويتحلين بأقراط كبيرة من فضة وإبزيمات من نفس المعدن وعدد كبير من القلادات يطغى عليها العنبر وقطع نقدية من قيمة فرنك وفرنكين وحيات زجاج ومرجان وتيجان من فضة ومرجان وأساور من القرن وأخيرا بعض الخواتم من فضة.⁴⁶

ب. التغذية

اتسم المستوى المعيشي للسكانة التيسينية في مجمله بالبساطة. يتناولون عند الاستيقاظ في الصباح، الحسو، وحوالي الساعة الحادية عشر يأكلون العصيدة، وفي المساء يتعشون على

⁴⁵ - نفسه، ص 165.

⁴⁶ - نفسه، ص 166.

الطعام واللفت⁴⁷. ويتبين مما سبق أن للحم ليس ضمن البرنامج الغذائي الأساسي سواء لدى العامة أو الأغنياء الذين لا يأكلونه إلا نادراً⁴⁸.

وكان لاختلاف المستويات الاجتماعية أثر كبير على المستوى المعيشي للسكان، ويتضح ذلك في استقبال الضيوف الذي لا يغير من البرنامج الغذائي. يقول دوفوكو: " لا يغير وصول الضيوف الوجبة الغذائية العادية كثيراً، عند دخول الضيوف المسكن تقدم لهم سلة من التمور ويتم نفس الشيء قبل طعام المساء. إن كانت العائلة غنية وإن كان الاستقبال يخص ناساً من ذوي مستوى تقدم لهم في الصباح تمور دافئة مع العسل بدل الحسو، إن وجد لبن يشرب حوالي الساعة الثالثة مع تناول تمور بوطوب أو بوفكوس، فيكون هذا لمحة"⁴⁹. أما الشاي فكان يهياً مرتين في اليوم قبل وجبة الصباح وقبل وجبة المساء⁵⁰.

ج. السكن

لعبت العوامل الطبيعية دوراً كبيراً في توجيه البناء العمراني بواحة تيسينت كما هو الحال في سائر واحات جنوب جبل بائي، فعظم مواد البناء كانت من المقدار أو من الآجور المشوي تحت حرارة الشمس. أما الجير فهو مخصص أساساً للأضرحة. وتستعمل عوارض النخيل لتسقيف المباني. وتتفاوت المباني حسب الفئات الاجتماعية، فمساكن الفقراء تبنى بالحجارة، في حين تبنى جميع منازل الأغنياء من المقدار.

وعلى مستوى شكل المباني، تتوفر الدور على طابقين سفلي وآخر علوي، ولكل منزل سطح وفناء داخلي. أما الأزقة فهي مغطاة، وضيقة إلى درجة لا يمكن للبعال أن تمر في أكثريتها وهي محملة⁵¹.

47 - نفسه، ص 167.

48 - نفسه، ص 168.

49 - نفسه، ص 168.

50 - نفسه، ص 168.

51 - نفسه، ص 164.

د. الحياة الدينية والثقافية

كان الورع والتقوى والاعتقاد في الصلحاء والأولياء، وارتفاع المستوى الثقافي، أهم السمات الدينية والثقافية الأساسية التي طبعت المجتمع التيسينتي، ويتضح ذلك من خلال العناصر التالية:

1- انتشار الزوايا والأضرحة: تحدث دوفوكو عن زاوية سيدي علي أوعبد الرحمان بقصر بوموسي؛ ذات المكانة الكبيرة عند بعض الرحل من أولاد يحيى. إضافة إلى زاوية سيدي عبد الله أمحمد حيث ضريح سيدي عبد الله أمحمد وابنه سيدي محمد أوبوبكر. وضريح سيدي إسماعيل قبالة أكادير. وكانت هذه الأضرحة عبارة عن مزارات تشد إليها الرحال من جميع مناطق المغرب خلال المواسم السنوية التي تقام لها، حيث تقدم التبرعات لأفراد سلالة هؤلاء الأولياء⁵².

ويلاحظ في هذا السياق، أن دوفوكو تعامل بنوع من الانتقائية في دراسته للأضرحة والزوايا في المنطقة مركزا على زاوية سيدي عبد الله أمبارك بمغيميمة، والتي زارها يوم 26 دجنبر 1883، وعمرها آنذاك حوالي 150 سنة. ومرد ذلك إلى مكانتها الدينية والاقتصادية، وشهرة ووقار رئيسها آنذاك سيدي عبد الله في جنوب المغرب ما بين درعة وسوس. فهو -يقول دوفوكو- "أشهر وأكثر وقارا في ربوع ما بين درعة وسوس، بعد زاويتي تمكروت وسيدي أحمد أوموسي"⁵³.

كما قدم دوفوكو عملا تأريخيا دقيقا حول زاوية مغيميمة، على مستوى بنيتها الداخلية، وعلاقتها المجتمعية بباقي القبائل، وأدوارها الاجتماعية من إيواء الضيوف وعابري السبيل، وتأمين الطريق، إضافة إلى السلوكات التي تطبع عمل هذه الزاوية⁵⁴.

2- الحرص التام لدى أهالي تيسينت على أداء الشعائر والواجبات الدينية، ف"لا يوجد إلا قليل من ذوي شيء من اليسر لم يؤد مناسك الحج". بل إن "أداء مناسك الحج طموح جميع سكان الواحة"⁵⁵. وفي مقابل ورع المجتمع التيسينتي المحلي تحدث دوفوكو عن "وثنية" العرب الرحل، وأميتهم الدينية والثقافية، حيث لا حج ولا صلاة ولا قراءة ولا كتابة. بل إن

⁵² - نفسه، ص 163.

⁵³ - نفسه، ص 211.

⁵⁴ - يرجع إلى دوفوكو، م س، ص 213-223.

⁵⁵ - نفسه، ص 164.

"العمل الديني الوحيد الذي ينجز هو إعطاء بعض النقود للزوايا، وفي هذه الحالة لا ترسل إليها النقود بتاتا، يجب على المرابطين أن يذهبوا بأنفسهم لطلب "الزيارة" في كل دوار الرحل. إن الأمر أسوأ عند إداوبلال، حتى لو أن المرابطين قدموا إليهم فإنهم لا يعطونهم شيئا وإن كرر المرابطون طلباتهم فإنهم ينعونهم بالكسالى ويردونهم على أعقابهم مستهزئين بهم. وعندما يحدثهم المرابطون عن الجهاد، فإنهم يجيبونهم أنهم لا يذهبون إلا حيث يوجد ربح."⁵⁶

3- ساهمت المكانة الاقتصادية والاستقرار البشري بواحة تيسينت في انتعاش الحياة الثقافية وتطور المستوى الفكري بها، فتكونت فئة مثقفة لا يستهان بها ممن يعرفون القراءة والكتابة، وهي المرة الأولى التي صادف فيها دوفوكو مغاربة مثقفين خارج فضاء المدن والزوايا⁵⁷. وهكذا صارت تيسينت "أعجوبة وسط عالم الجهل العام"، حسب تعبير دوفوكو.

4. الوضع السياسي وتدبير الشأن المحلي

تندرج تيسينت ضمن الواحات والأطراف البعيدة عن السلطة المخزنية، أو ما كان يعرف في الأدبيات الاستعمارية بـ"بلاد السبية". وأمام الفراغ السياسي المخزني بالمنطقة، صارت الواحة بمثابة "كفدرالية سياسية"، يحظى في ظلها كل قصر من القصور باستقلال في إدارة شؤونه الخاصة، مع العيش في وفاق وتحالف مع بعضها البعض أمام ما يهدد استقرار المنطقة وأمنها. وبفضل هذا الاتفاق استطاعت أن تحقق رخاءها الاقتصادي والاجتماعي.

ورغم أهمية النظام السياسي "الفدرالي" لتيسينت، إلا أنها لم تتمكن من توفير سلطة سياسية مستقلة قوية تقيها من التبعية السياسية لبعض القبائل المجاورة كزناكة وإداوبلال. وهكذا تأرجحت الواحة في تبعيتها السياسية الإسمية بين زناكة وإداوبلال.

فقبل عشرين سنة على زيارة دوفوكو لتيسينت، أي خلال ستينيات القرن التاسع عشر، كانت خاضعة لزناكة، حيث كان للأزناكي مسكن بقصر أكادير، وكانت الواحة كلها تعترف بأولويته⁵⁸. إلا أن تسلط زناكة وتجاوزاتهم، دفع أهالي المنطقة إلى الانتفاض في وجههم، وعقدوا تحالفا مع قبيلة إداوبلال لمواجهة ظلمهم وبطشهم، وبموجب هذا الاتفاق

⁵⁶ - نفسه، ص 163 - 164.

⁵⁷ - نفسه، ص 164.

⁵⁸ - نفسه، ص 170.

دخلت تيسينت في حماية إداوبلال الذين تمكنوا مع الساكنة المحلية من طرد زناكة و"أرغموهم على مغادرة الواحة وسهل الفيحة في نفس الوقت وأجلوهم حتى أكني"⁵⁹.

ولم تكن تبعية تيسينت لإداوبلال، الحماية الجدد، ترابية/بجالية، بل إنها إسمية ورمزية فقط. وهذا ما يوضحه دوفوكو في قوله: "سيادة إداوبلال هذه لا تنطوي على أي تدخل لا في الشؤون الداخلية ولا في الشؤون الخارجية للقصور، كل يسير أموره حسب هواه ولا تنطوي حتى على تكوين أحلاف. أن تكون لأهل تيسينت حروب في ما بينهم أو مع الأجانب عنهم فهذا لا يهم بتاتا إداوبلال، الواجبات المتبادلة هي تقدم إتاة سنوية إلى حاميتهم بالنسبة لسكان تيسينت متمثلة في حمولة 20 بعيرا وأن يمتنع إداوبلال عن كل أعمال معادية ضد محبيهم. إن أرادت تيسينت أو جزء منها مؤازرة إداوبلال بمناسبة حملة أو حرب دفاعية فسيكون هذا مادة معاهدة خاصة. لم يحدث هذا الأمر منذ طرد زناكة، لم يحاول هؤلاء الرجوع بتاتا، استقر الأمن بينهم"⁶⁰.

في حين أن التنظيم السياسي المحلي الفعلي ظلت فيه السلطة لكل قصر من قصور الواحة، وفق تدبير جماعي تسلم فيه السلطة التنفيذية لـ"إجماعن" أي الجماعة، التي يترأسها شيخ منتخب هو "أمغار". يقول دوفوكو، وهو يحدثنا عن طريقة اختيار الجهة التنفيذية داخل قصور تيسينت: "كل قصر يسير من طرف جماعة ساكنيه التي تسلم السلطة التنفيذية إلى شيخ منتخب من بين أفرادها. ومادام هذا الشيخ يرضي الأكثرية فإنه يحتفظ بلقبه... في هذه القصور تكون الصدارة للعائلة الوفيرة الغنى، بسبب وضعيتها الاجتماعية تكون هذه المكانة وفقا عليها. إن لتفوق شخص على باقي مواطنيه بسبب أخلاقه وثروته فإنه يبقى وبصفة عادية شيخا طول حياته. وفي حالة غياب من يفرض نفسه، يعين أعيان البلدة شيخا للقصر، ويبقى في هذا المنصب حتى اليوم الذي لم يعد يرضي فيه مواطنيه. يحافظ الشيخ على شؤون القصر ويفرض احترام التقاليد داخله ويحمي مصالحه في الخارج. يتقدم الشيخ الركب خلال الصراعات المسلحة."⁶¹.

ويتضح من خلال النص أعلاه، مدى حرص قبائل قصور تيسينت على تفويض تدبير شؤونها المحلية لـ"أمغار" منتخب وفق معايير محددة، فلا يكفي أن يكون من عائلة ذات النفوذ والثروة في القبيلة أو القصر، وإنما لابد أن يكون كذلك ذا أخلاق عالية ومقبولة لدى

⁵⁹ - نفسه، ص 170.

⁶⁰ - نفسه، ص 170.

⁶¹ - نفسه، ص 170.

الجميع، وأن يلتزم باحترام عادات وتقاليد القصر ومصالحه العليا. ورغم تمتع "أمغار" ببعض الصلاحيات، فإن التسيير يظل جماعيا، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالقضايا الحاسمة مثل الحروب، حيث تجتمع الجماعة وتقرر عندما يتعلق الأمر باتخاذ قرار مهم⁶².

ولم يكن "إجماع" الجماعة يعتمدون في ممارسة سلطتهم داخل القبائل أو القصور على قوانين مكتوبة، وإنما عبر أعراف وعادات متماشية مع أحوال الساكنة المحلية، ومع الشرع في بعض الجوانب. وهذا ما يستخلص من قول دفوكو: "لم أجد قوانين مكتوبة في أي من القصور الأربعة التي زرتها. تتناقل العادات عن طريق الحديث المتواتر في جميع هذه القصور، وإحدى واجبات الشيخ إلزام الآخرين مراعاة هذه العادات، لاختلاف هذه العادات بالنسبة للمبادئ الأساسية، وتغير في ما يرجع إلى التفاصيل في كل بليدة"⁶³.

استنتاج عام

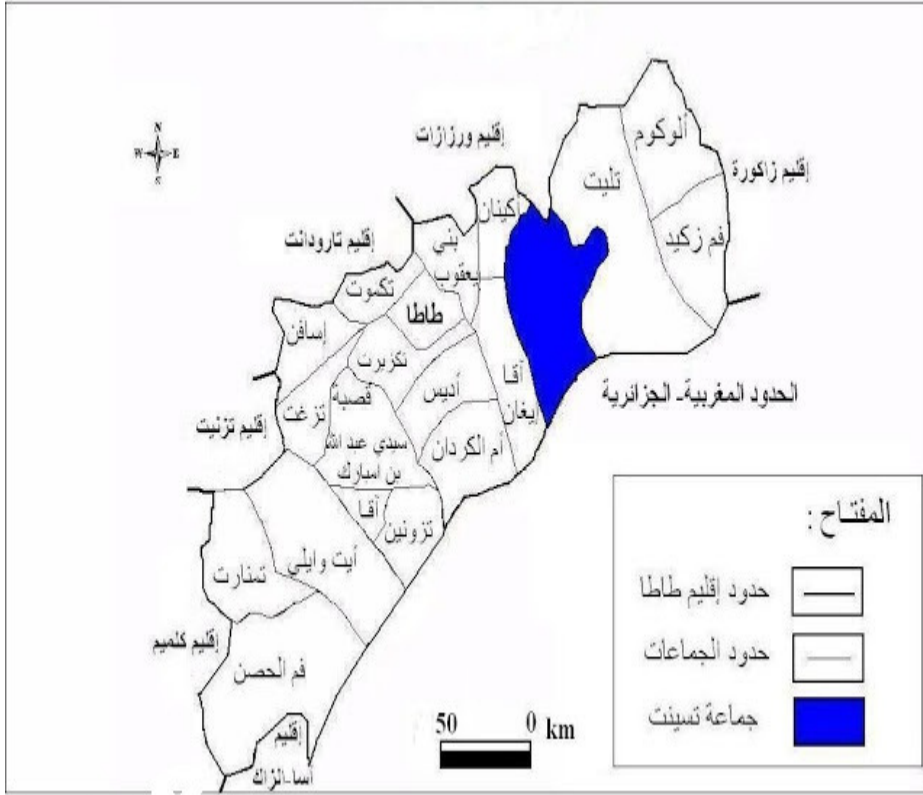
لقد بين استقراء صورة تيسينت في رحلة " التعرف على المغرب " لشارل دوفوكو، نموذجا لتمثل مجتمع الواحات المغربية في عيون الآخر الأجنبي، الذي كان يمهّد لاحتلال المجال المغربي ككل. إلا أن تأطير هذه النظرة وهذا التمثل بالنبرة الاستعمارية، لم يكن حائلا أمام فائدتها العلمية، ودقة معطياتها الجغرافية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها. بل إن دراسة وتحليل نص " التعرف على المغرب " رسخ الاقتناع الجاد بأن ما توفره الكتابات التاريخية الاستعمارية من مادة تاريخية دسمة حول مغرب ما قبل الاستعمار يظل مصدرا أساسيا لا يمكن تجاوزه في كتابة تاريخ المغرب عامة، وتاريخ البوادي والأطراف خاصة.

⁶² - نفسه، ص 171.

⁶³ - نفسه، ص 171.

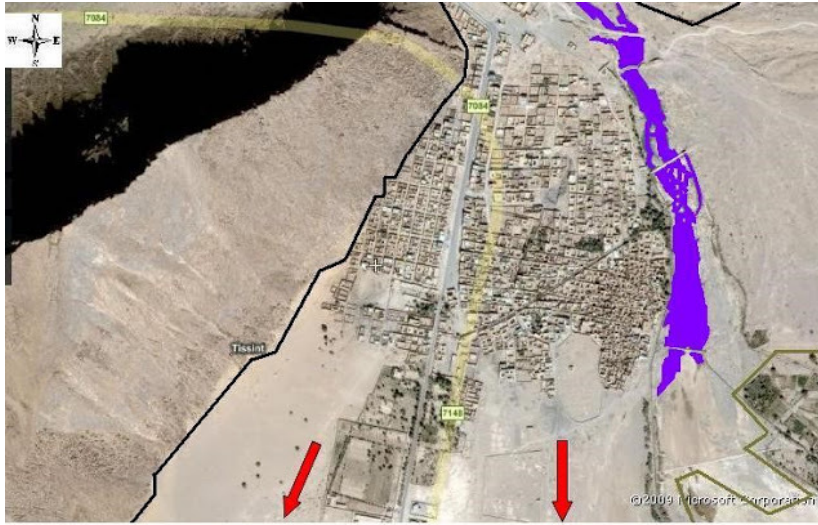
واحة "تيسينت" من خلال رحلة "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو


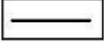


الملحق



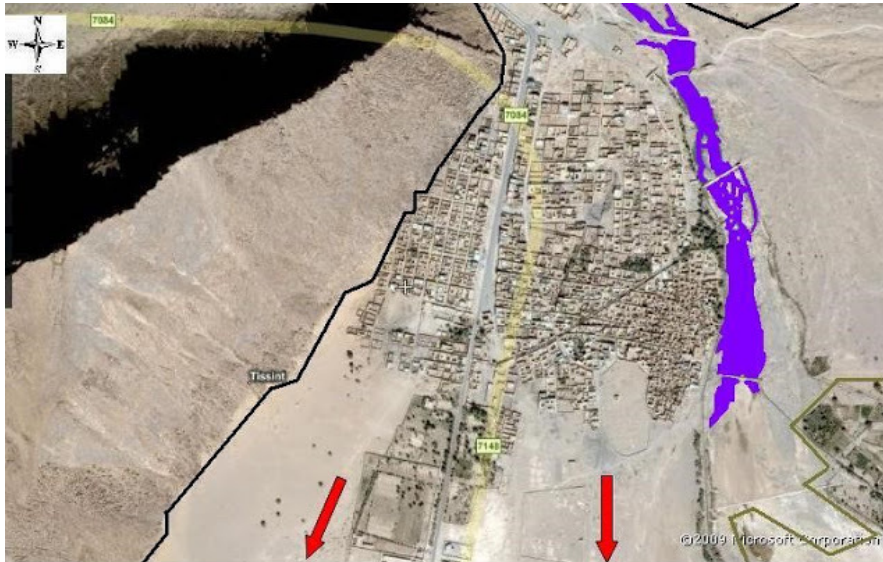
خريطة 1: الموقع الجغرافي لواحة تيسينت

البشير أبرزاق



نهر تيسينت		جبال باني		المفتاح :
إتجاه التوسع العمراني بمرکز تيسينت		الواحات		

مركز واحة تيسينت



نهر تيسينت		جبال باني		المفتاح :
إتجاه التوسع العمراني بمرکز تيسينت		الواحات		

واحة "تيسينت" من خلال رحلة "التعرف على المغرب" لشارل دوفوكو

لائحة المصادر والمراجع:

أوسديد، مبارك، "تيسينت"، معلمة المغرب، ج 8، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1995.

بوزويطة، سمير، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية (1832-1912)، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى 2007.

دوفوكو، شارل، التعرف على المغرب (1883-1884)، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1999.

الهروي، الهادي، القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقارنة سوسولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2005.

Bazin, René, *Charles de Foucauld, explorateur du Maroc, ermite du sahara*, Paris, 1931.

Bellakhdar, Jamal, et al., *Tissint une Oasis du Maroc présaharien*, Editeur Albiruniya, Rabat 1992.

Jean, François, *Vie de Charles de Foucauld*, Edition du seuil, 1962.

Laroui, Abdallah, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*, 2^{ème} édition, 2001.